المحاضرة06: الصورة الشعرية في النص الشعري المعاصر.

تمهيد:

لقد ثار رواد الشعر العربي الحر على المقاييس الموروثة في الشعر لأنها أصبحت تحول دون تطور الشعر في مواكبة حركة الحياة الجديدة، وساعدهم على ذلك ما عرفته هذه المرحلة التاريخية بعد الحرب العالمية الثانية من حركات التحرر في الوطن العربي وثورة على الأوضاع السائدة. فالقصيدة الشعرية ليست مجرد موضوع عند رواد الشعر الحر كما أنها ليست مجرد شكل فالشكل امتداد للمضمون، ولهذا لم يفصلوا بين الشكل والمضمون.

أولا - تجديد الصورة الشعرية.

إن الصورة الشعرية عند رواد الشعر المعاصر تتجاوز الصورة البلاغية لأن الاستعمال المجازي للغة وسيلة من وسائل الصور الكثيرة. فالصورة عندهم تشمل الصورة البلاغية كما تشمل الصورة الرمزية والأسطورية، بل تتعدى ذلك لأنها عندهم صورة كلية، وكما تتجاوز الحاضر إلى الماضي تتجاوز الماضي والحاضر إلى المستقبل لتربط الماضي بالمستقبل.

كما أن الصورة الشعرية ليست جاهزة سلفا وإن كان بعض عناصرها موجودا في الطبيعة والذات والواقع والماضي والحاضر، بل هي خلق وابتكار يتولد من خلال علاقة المفردات بعضها ببعض، والصورة الشعرية «تحرر اللغة من العلاقات العقلية التقليدية التي تربط بين مفرداتها، وتولد بينها علاقات جديدة، سعى الشعراء أن تحقق الدهشة، وتنطلق إلى أفاق جديدة، فتكسب بذلك معاني جديدة، لا تتوفر للمفردات المجردة التي تتكون الصورة منها، وهذا ما يبين قيمة الصورة في الشعر. ولعل هذا ما يمنح الشاعر قيمته، إنه يستخدم مفردات متداولة بين الناس، ولكنه يكون منها ما لم يستطع غيره فعله، فيمنح اللغة من خلال الصورة الشعرية قدرات دلالية مبتكرة ليست لها في الواقع الاجتماعي المعيش.»[i]

لقد اكتسبت الصورة الشعرية هذه الأهمية، وبدا الوعي بها واضحا في الشعر العربي المعاصر الذي أدرك أبعادها النفسية والفكرية، وعلاقاتها الوطيدة بالتجربة الشعرية، ومدى مسؤوليتها عن وضوح الرؤية واكتمال التجربة، لقد بدت هذه المفاهيم واضحة في الوعي الشعري العربي المعاصر مع تعقد الحياة وتطور مفهوم الإبداع الشعري، وتوسل الشعر وامتياحه من مسارب معرفية كثيرة فلسفية وعلمية وإبداعية.

ومن ثم وضح مفهوم الصورة الشعرية ووظيفتها وعلاقتها بعناصر التجربة الشعرية عامة، بما لم نعهده في الشعر العربي القديم الذي كادت الصورة فيه أن تكون تسجيلا للأشياء لا انفعالا بها، أما في الشعر العربي المعاصر فقد أصبحت الصورة عضوا فعالا في التجربة الشعرية، أو لنقل إنها هي التجربة الشعرية.[ii]

ففي القصيدة المعاصرة لا نستطيع أن نصف الصورة ونبين علاقاتها دون أن نسترشد بالرؤية الكلية للشاعر، خاصة وأنه لم تعد المشابهة بين أطراف الصورة وعناصرها هي العلاقة الأساسية بين هذه الأطراف والعناصر في القصيدة المعاصرة، فالصورة في النص الشعري المعاصر «إبداع خالص للروح، وهي لا يمكن أن تتولد

من التشابه، وإنما من التقريب بين حقيقتين متباعدتين كثيرا أو قليلا، وكلما كانت الصورة الصلات بين الحقيقتين اللتين يقرب بينهما الشاعر بعيدة ودقيقة كانت الصورة أقوى، وأقدر على التأثير وأغنى بالحقيقة الشعرية.»[iii]

يفكر الشاعر بالصور بخلاف العالم، لأنه يرى الأشياء من الداخل، أما العالم فيراها من الخارج، إن ذهن الشاعر تندمج فيه الذات بالموضوع، فيدرك العلاقات الكامنة بين الأشياء أو عناصرها، ويقيمها بواسطة الصور مثل الطفل الذي يرى الظل على الأعشاب، فيصيح إن الأعشاب تبكي،[iv] فالشاعر يعبر عن علاقته بالأشياء أما العالم فيهتم بالأشياء ذاتها.

ومن هنا يمكن أن نميز بين «لغة الشاعر التي هي استعمال تصويري للكلمة، وبين لغة العالم التي هي استعمال حرفي للكلمة، كما يقول هيلين»[v]، فلغة النص المعاصر لغة تصويرية، لأنها تعكس رؤية خاصة وعلاقة خاصة بالعالم، أما اللغة العلمية فهي لغة تصور عقلي محدد للعالم.

لقد ركز الشاعر المعاصر على رؤيته المتميزة للعالم، وعلاقته الخاصة به من جهة، وقدرته على إعادة تركيب هذه الرؤى والأحاسيس من جهة أخرى، فالشعر تصوير لعلاقة خاصة بأشياء العالم، يعتمد الخيال في بناء عالمه الخاص، ويقوم هذا الخيال بعملية التحليل والتركيب، فهو يبني ويهدم علاقات قديمة، ليخلق علاقات جديدة وبالتالي يخلق صورة جديدة مغايرة للمألوف، ولما استقر في الذهن أيضا، ليستفز ذهن المتلقي ويفتح أفق توقعه على كثير من المدلولات.

إن الصورة الشعرية وفق هذا المنظور لا تنشأ من فراغ، وإنما من عناصر توجد في الواقع، يقوم الشاعر بتحويرها أو الحذف منها أو التركيز على جانب منها دون الآخر، ثم يعيد تركيب ذلك على ضوء انفعاله الخاص ليصل إلى صورة جديدة،[vi] ومثلما تأخذ الصورة بعض عناصرها من الواقع وتعيد تشكيله على ضوء رؤيا الشاعر تأخذ كذلك بعض عناصرها من اللاشعور، ومن النماذج الأولى التي تعكس اللاوعي الجمعي.

ويذهب أدونيس إلى أن الإبداع الفني الخلاق إنما ينطلق من اللاشعور عالم الرغبات والقلق والأحلام، لا من عالم الشعور، فالشعور عنده يمثل الحياة اليومية، أما اللاشعور فهو الحركة التي تقابل الثقافة السائدة، وتتطلب هذه الحركة واندفاعها الأسمى لغة مغايرة للغة الثقافة السائدة، ومهمة الشاعر هنا هو إبداع عالم يتطابق مع التطلعات الكامنة في اللاشعور ويكون امتدادا لها.[vii]

وبفعل البناء الصوري استطاع الشعر المعاصر أن يتخلص من التقريرية والنثرية حيث أدرك الشعراء المعاصرون أهمية بناء الشعر بناء صوريا، لأنه «لم يكن بإمكان الشعراء أن يعبروا عن الحالات المعقدة عن طريق الشعر المباشر، فلجأوا إلى الصور والأساليب المواربة من إشارة ورمز وفلكلور وأسطورة، وقد ساعدهم تأثرهم بالشعر الغربي المعاصر الفني بالصورة في اجتياز العتبة من الأساليب القديمة إلى أسلوب جديد.»[viii].

ولما كان الشعر رؤيا والرؤيا عالم مغاير أو حلم متحرك، فقد استعصى التعبير عنها بواسطة التعابير المستنفدة والصور المألوفة الجاهزة التي فقدت حرارتها، لذا لجأ الشعراء المعاصرون إلى الصور المدهشة، لأن الصورة هي الجزئي الذي يشكل مفاتيح متعددة للعالم الشعري، وهي المجال الأساسي للرؤيا الشعرية لأنها تشكل مسار

هذه الرؤيا، فيصبح العالم في أشيائه وعلاقاته ميدان فعل جديد، أي أن الصورة هي التي تؤسس الدهشة والمفاجأة والحلم داخل العمل الشعري.

هذا ويركز الشعراء المعاصرون على الوظيفة الإيقاعية للصورة، فقد سعوا إلى تحطيم الموسيقى الخارجية وكان تركيزهم الأساسي على بناء الشعر على الموسيقى الداخلية، ومن هنا كان تركيزهم على الصورة إذ أصبحت مقياسا أساسيا لقدرة القصيدة على الإحاطة بالشعر.[ix]

ثانيا- أشكال الصورة الشعرية.

إن أهم ما ارتكن إليه الشعر المعاصر ووجد فيه مخارج التشخيص الفني المناسبة للإبداع وللعصر، هو الصورة الشعرية، فبالصورة تتحرر اللغة في معجميتها لتحمل دلالة هذه الصورة، ثم لتحمل الصورة موسيقية ألفاظها، فيشتركان معا في ضمان تفاعلها.

إن جدة الصورة في قصيدة التفعيلة جاءت من تأثر بعض الشعراء العرب بإليوت، فكانت الأساطير والرموز التي استعملها في شعره، وكذ الترابط الموضوعي والتضمين وغيرها، مما تأثر به أولئك واستوعبوه من إليوت الذي كان يحرص حرصا شديدا على تخصيص شعره بهذه الخصائص.

فكان بقدرته على تغيير مدلولات ألفاظه بالصورة والرموز والأساطير يوظف أشكالا مختلفة في تعبيره الشعري، ولقد كان "السياب" من أبرز الشعراء الذين تأثروا بإليوت واستفادوا منه، فاتخذ الصورة وسيلة لخلق تعابير صورية غير مألوفة، لأجل الإيحاء بها وتمييز الجو الشعري والعاطفي بها؛ كما في قوله:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شر فتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبتسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر.[x]

إن الشاعر يستخرج عوالم الصورة الشعرية من عمق التفكير وعمق التوقع الفني؛ لكي يخرج الشعر من دائرة التقريرية والمباشرة ويعانق أجواء تتمازج فيها الحقيقة مع الوهم والموضوعي مع الذاتي، والتشكيلي مع الرمزي، والواقعي مع الأسطوري، والشعري مع الفلسفي.

فارتقت الصورة عندهم من كونها «عنصرا إضافيا تزينيا إلى عنصر بنائي مكون يوازي العنصر الإيقاعي ويشارك في عملية السحر الشعري، بل تخطت الصور المألوفة وارتبطت بمنابع غنية وبخيال معقد وبيئة قلقة وبإحساس مدهش، كما أنها لم تعد التركيب الذي يوضح المعنى، وإنما هي البنية المسؤولة عن التماسك بين جزيئات السياق الشعري وعن الانسجام في كيان القصيدة».[xi]

ولقد أولوها أهمية بالغة وعناية فائقة حتى إن هناك من قال «إن الشاعر لا يبتكر الصورة لينقل معنى أو ليقرر أن هذا يشبه ذاك في سياق مجرد، وإنما ليخلق جوا يمكن أن يتسرب من خلاله تيار مضي داخلي جذوره في

الاستجابة الإنسانية للعالم».[xii] ولقد تعددت أشكال الصورة الشعرية وأنواعها في قصيدة التفعيلة، وتوزعت على ثلاثة أنواع هي:

أ- الصورة ذات المشاهد المتعددة (المجزأة): تتكون من وحدات صورية أو مشاهد منفصلة ظاهريا يربط بينها الرابط الموضوعي والعضوي أو وحدة التجربة الشعرية، وهذا النوع من الصورة انبثق نتيجة إفادة الشعر المعاصر من فنون متعددة كالفن السينمائي والتشكيلي.

ب- الصورة التشكيلية: تأتي هذه الصورة في هيئة لوحة تشكيلية منتقاة العناصر، وإذا كانت الصورة السينمائية(المونتاج) نابضة بالحركة والصوت، فإن الصورة التشكيلية في الغالب تعتمد على المرئيات والألوان وهي تمكن الشاعر أيضا من اختزال لقطاته وتكثيفها بما يخدم التجربة ويعبر عنها.

ج- الصورة المتنامية عبر المشهد الواحد المتصل: ويقصد بها الصورة المتدفقة العناصر والتفاصيل والإيقاع الحركي في هيئة نامية تبدأ مع بداية التجربة وتكتمل باكتمالها وهي صورة متتابعة الجريان.[xiii]

ومن أشكال توظيف الصورة الشعرية التي تنماز بها قصيدة التفعيلة الرموز والأساطير، فأما الأول فيكون توظيفه مناط ابتكار وتميز من طرف الشاعر، إنه مكان أو زمان أو حدث أو شخوص لها وضعيتها التاريخية والدلالية المرتبطة بها والحادثة في التاريخ الإنساني.

خاتمة:

وعليه فإن التطور الحاصل في الصورة الشعرية في النص الشعري العربي المعاصر، أحدث تحولا أيضا على مستوى بنية هذا النص وعلى مستوى عناصره الأخرى، فلم تعد البلاغة بتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي التي تصنع الصورة، وإنما استعار مكونات أخرى كالرموز والأساطير والأقنعة... وغيرها ليصنع صوره التي تعبر عن تجربته الشعرية والشعورية